بنو زهر: نظرات في تاريخ أسرة أندلسية (1)

محمد بنشريفة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الرباط
عضو أكاديمية المملكة المغربية

إن القارىء لتاريخ الأندلس في أصوله ومصادره الأساسية، ولا سيما منها كتب الطبقات التي تدعى بكتب الصلات، لا يفوته أن يلحظ الدور الذي كان لعدد كبير من الأسر الأندلسية في تطور الفردوس المفقود من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية.

أما من الناحية الاجتماعية والناحية الثقافية، فالأمر واضح ولا يحتاج إلى تفسير، وإن نظرة في كتب التراجم الأندلسية لتدلنا على أن ذلك التنافس تميز بالاستمرار والتسلسل، وما أكثر البيوتات التي كان أفرادها يتوارثون العلم أبا عن جد. وقد نشأ عن هذا ذلك التراكم الذي هو شرط ضروري للازدهار الحضاري كما هو معلوم.

وأما من الناحية السياسية، فمن المعلوم أن نظام الحكم في الأندلس قام في العهد الأموي وكذلك في العهود التي تلته ــ على أكتاف البيوتات الكبرى سواء أكانت من العرب أم من البربر أم من الموالي، فمن هذه البيوتات الكبرى كان الوزراء والحجاب والعمال والقواد، ونذكر منها في عهد الخلافة على سبيل المثال بيوتات بني حدير وبني أبي عبدة وبني شهيد وبني فطيس وبني عبد الرؤوف وبني بسيل وبني غانم وبني رستم وبني الزجالي وبني وانسوس وبني الخليع وغيرهم.

وقد ألف كل من المؤرخ أحمد الرازي، والمؤرخ عبد الله الحُكَيِّم، تأليفين خاصين في مشاهير بيوتات الأندلس التي كان لها شأن منذ الفتح حتى وقتها أي أواخر القرن الرابع الهجري، وقد ظلت بعض تلك البيوتات تتوارث الأدوار أبا عن جد حتى نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس.

---

(1) هذا العنوان هو موضوع الدرس الافتتاحي الذي ألقاه الاستاذ محمد بنشريفة في مطلع السنة الجامعية 1991/1990 بكلية الآداب والعلوم الانسانية بأكادير

ومن هذه البيوتات ظهر ما يدعى بملوك الطوائف الذين توزعوا حكم الأندلس غداة انفراط شمل الجماعة، وانطماس رسم الخلافة، وانتهاء ما دعاه بعض الباحثين بعصر سيادة قرطبة، وأشهر هذه البيوتات بدون شك هو البيت العَبّادي الذي استطاع أحد أفراده وهو الفقيه أبو القاسم محمد بن عباد الاستيلاء على السلطة في إشبيلية متوسلا إليها بمنصبه ومستعينا عليها بنسبه، ومستدرجا بعض البيوتات كبني الزبيدي وبني يريم وبني العربي وغيرهم، فتم بذلك قيام دولة بني عباد التي كان من أمرها ماكان.

وإذا أخذنا بكلام الأديب المؤرخ أبي الحسن علي ابن بسام فإن فقيها إشبيليا آخر كان يستطيع ــ لو شاء ــ منافسة ابن عباد في السيادة ومزاحمته على الرئاسة. هذا الفقيه هو أبو بكر محمد بن مروان بن زهر الإيادي الإشبيلي، قال ابن بسام :

«وكان الفقيه محمد بن مروان بن زهر منشأ تلك الدولة العبادية أوَّلَ مَنْ تُثنى عليه الخناصر، وتشير إليه القلوب والنواظر، وتفتقر إلى ما لديه الألباب والبصائر، فضاقت دولة ابن عباد عن مكانه، ضيق صدر العاشق عن كتم أشجانه، واسترابت لجلالة شأنه، استرابة المنافق بتلجلج لسانه، وأهمه أمره حتى أخرجه عن بلده، واستصفى ذات يده، فلحق بشرق الأندلس وأقام بها بقية عمره، بين جاهه ووفره، وفي حصن حصين من سلامة سره وجهره»

ويقول القاضي عياض في ترجمة ابن زهر الجد المذكور مانصه:
« ولما قام أبو القاسم بن عباد في الفتنة بإشبيلية واقتطعها ملكا لنفسه احتاط لحاله فنكب كل من خشي على نفسه من كبرائها، وكان الرجل (يعني أبا بكر ابن زهر) حيث كان جلالة وعلما، فخاف على نفسه وخرج فسكن طليطلة مدة ثم تردد بالثغور الشرقية إلى أن مات، واقتطع بنو عباد عند مغيبه أمواله واستصفوها وكانت كبيرة»

فهذان الخبران اللذان يؤكد أحدهما الاخر يدلان على المكانة الاجتماعية لهذا الفقيه النبيه الوجيه، وقد رفع ابن عبد الملك نسب بيته الإيادي متصلا إلى الجد الأعلى إياد بن معد بن عدنان، وذلك في ترجمة أبي العلاء زهر وترجمة أبي بكر الحفيد، وإياد جد قبيلة ذات أمجاد فى الجاهلية والاسلام، وفي الأياديين يقول الأسود ابن يَعْفُر :

أهــل الخورنـق والسدير وبارق والقصــر ذي الشـرفـات من سنـداد

ومن إيادكما هو معروف قس بن ساعدة المضروب به المثل في الفصاحة وكعب بن مامة الذي سار مثلا للجود والايثار وأبو دؤاد الايادي و لقيط ابن أبي عمر، وهما شاعران معروفان. وابن أبي دؤاد الأيادي القاضي المعتزلي المشهور كما أن دعمي بن جرير أحد الواردين في نسب بن زهر عند ابن عبد الملك هو الذي استتر عنده بقنسرين عبدُ الرحمن بن معاوية صقر قريش أربعة أشهر قبل أن يتوجه إلى الأندلس، ويبدو أن أول داخل من سلف بني زهر إلى الأندلس هو جدهم زهر الذي ينسبون إليه، وهو زهر بن عيسى بن عبد الملك بن دعمي المذكور آنفا، ولا شك في أن الأمويين أكرموا هذا الداخل مثلما أكرموا كل من التحق بهم في الأندلس ممن كانت لهم يد عندهم. ولا شك أن الأنعام شمل جميع الداخلين إلى الأندلس من ولد إياد بن معد بن عدنان الذي ذكر ابن حزم أن « دارهم بالأندلس قرمونه ونبلة»

أما المقري فينقل في النفح ما يلي :

«وأما إياد... فينتسب إليهم بنو زهر المشهورون بإشبيلية وغيرهم» من هذا نرى أن فقيهنا الأيادي لم يكن أقل نسبا ولا نشبا من قريعه العبادي كما أنه أكبر منه سنا بل سنه كان في سن والده، وقد عده ابن الخطيب في اللائحة الطويلة من جملة الأعلام الذين شهدوا بيعة هشام المؤيد عام 366 هـ ووضع اسمه بجنب اسم اسماعيل أبي القاسم المذكور ولو أن الأول كان ينهض بالفتوى والشورى بينما الثاني يتقلد خطة القضاء التي ورثها عن والده وبها تسلم إمرة إشبيلية وتسلم زمامها.

ومن هنا اختلف قَدَرُ الرجلين فركِب ابن عباد موج السياسة الزاخر العُباب، بينما كتب على ابن زهر هول التنقل والاغتراب، وكان هذا من حسن حظ العلوم والآداب، فقد دفعت هذه المحنة ابن زهر الجد أن يوجه ولده وجهة الحصول على ما يبقى وهو العلم، فكان له ذلك، وأبى على الولد طموحه إلا أن يرحل إلى الخارج من أجل تعلم الطب الذي برز فيه وأورثه بنيه، ويبدو أن رحلة عبد الملك كانت بعد أن توفي والده، وكان الشيخ ابن زهر الجد ــ بعد أن خَرَجَ أو أُخرج من إشبيلية عام 419 هـ قد تنقل بين طليطلة ووشقة وطلبيرة ناشرا للعلوم وملازما للثغور إلى أن تُوفّي بطلبيرة عام 422 هـ.

أما عبد الملك فقد طالت رحلته إلى المشرق حيث درس الطب على كبار أعلامه ومارسه كذلك بصفته رئيسا للأطباء في القيروان والقاهرة وبغداد، ثم رجع

بعد هذه الرحلة الطويلة إلى الأندلس جالبا إليها كتبا لم تكن معروفة بها. وقد استقر بمدينة دانية في كنف أميرها مجاهد العامري الذي انفرد بين أمراء الطوائف بحبه للعلم وعنايته بأهله، ولم تلبث شهرة عبد الملك أن ذاعت في مختلف أرجاء الأندلس والمغرب. وظهرت له نظريات واجتهادات عَجب لَها أطباء وقته في الأندلس ولم يسع كبيرهم يومئذ ــ وهو أبو المطرف عبد الرحمن بن وافد تلميذ الزهراوي ــ إلا أن يستحسنها ويطرب لها، وكان بعض هذه الاجتهادات موضوع رسائل بين هذين الطبيبين الكبيرين.

وقد أشار عبد الملك الحفيد في التيسير إلى بعض هذه الاجتهادات وإلى الرسائل المذكورة وقال إنها موجودة في أيدي الناس.

ولقد توفي عبد الملك الحاج هذا كما يدعوه حفيده ويسميه في التيسير ــ مُغَرّباً ــ كوالده ــ عن بلده إشبيلية ــ وكانت وفاته بمدينة دانية حوالي 470 هـ ودفن إلى جانبه عالم حكيم كان فيما يبدو صديقا له وهو أبو الوليد هشام الوقشي.

إن عبد الملك الحاج هو أول الأطباء الستة من بني زهر الذين استووا على عرش الطب في الأندلس والمغرب متوارثين صناعته أبا عن جد طوال نحو ثلاثة قرون.

أما ثانيهم أبو العلاء زهر فقد ولد في الغربة أو المنفى ونشأ بدانية ثم تحول إلى شاطبة بعد وفاة والده، وزوال إمارة دانية، طلبا للأمان الذي كانت توفّره هذه المدينة، وقد ورث أسرار مهنة الطب عن والده ونبغ في هذه المهنة نبوغا عظيما «أنسى من قبله» فكان يعرف حال المريض بمجرد جس نبضه أو النظر في قارورة بوله، ولهذا تهادته الإمارات، واستدعته البلاطات، ومنها بلاط بني رزين أمراء السهلة، وكانت بينه وبين حسام الدولة علاقات ودية ومخاطبات شعرية، وكان ينتقل من شاطبة إلى شنتمرية لمجالسته ومعالجته.

أما الحدث البارز في حياة أبي العلاء فهو اتصاله بيوسف بن تاشفين عام 481 هـ وذلك خلال حصار حصن لييط الذي اشترك فيه أمير المسلمين مع ملوك الطوائف وحضره معهم أبو العلاء، وخلال هذا الحصار أيضا كان التلاقي بين أبي العلاء سليل البيت الأيادي والمعتمد زعيم البيت العبادي بعد التجافي الذي دام أزيد من 60 سنة، وقد تودد المعتمد إلى أبي العلاء «وصرف عليه بعض أملاكه» ودعاه

للعودة إلى بلده إشبيلية، ولكن أبا العلاء رغم حنينه إلى بيت أسلافه لم يرجع إليها إلا بعد أن خُلِعَ الأمير الشاعر. ولكأنما انتصف القدر لبني زهر من بني عباد، فقد عادت إليهم أملاكهم وصارت لهم الرياسة في بلدهم، وذلك بفضل الحظوة العظيمة التي أدركها أبو العلاء لدى يوسف بن تاشفين وعند ولده علي في صدر دولته. وقد عبر ابن بسام عن حظوة أبي العلاء لدى أمير المسلمين بقوله : «وحلّ من نفسه محلا لم يحله الماء من الظمآن، ولا الروح من جسد الجبان».

وَيروي المؤرخ ابن عذارى في البيان المغرب أنه، كان في غاية الجاه والعزة والتمكن من الدولة، يولي من قبله حاكم من حاشيته وصاحب المدينة من توليته، وشهود البلد بحكمه، وأمر المستخلص وأملاك السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة بإشبيلية، ومعنى هذا أن أبا العلاء أصبح بمثابة نائب الملك في إشبيلية عاصمة الأندلس في هذا العهد، وغدا ينعت بالوزير الكبير والوزير الأعلى وقد ذكرَ هذا المؤرخ أيضا في موضعين من كتابه المذكور أن أمير المسلمين علي بن يوسف عزل قاضي إشبيلية أحمد بن منظور ــ وهو فقيه كبير من بيت نبيه ــ بسبب تعليق صدر عنه لما سمع بمرض الطبيب وذلك أنه قال على سبيل الاستهزاء : أيمرض ابن زهر، أو طبيب ماهر يمرض ! فلما نُقِل إليه ذلك قال :

قالو : ابن منظور تعجب هازلا لما مرضت فقلت يعثر من مشى
قد كان جالينوس يمرض دائما ومن الفقيه المرتضى أكل الرّشا

ويمكن أن نضيف إلى السبب المذكور موقف هذا القاضي من الدعاوي التي رفعها أبو العلاء للمطالبة باسترجاع أملاك جده. وَلَقد أشرنا فيما سبق إلى أن المعتمد ردّ لأبي العلاء بعض هذه الأملاك ولكن بعضها الآخر وُجِد بيد بعض الإشبيليين من بني أيمن وبني خالص وغيرهم وفي كتاب نوازل ابن رشد الجد عرض للفتاوى المتعلقة بهذا الموضوع الذي ظل قائما في عهد القاضي الذي خلف ابن منظور وهو أبو أيوب سليمان الحضرمي فقد ذكر المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي أن أبا العلاء «كان يغص بمكانه وجرت بينهما مخاطبات بالشعر» وقال إنه «استَعْفى من حينه فأُعفي» وذلك في السنة الأولى من عهد علي بن يوسف أي 501 هـ وسنجد هذا الحضرمي الذي ينتمي إلى بيت نبيه في إشبيلية يتصدر أهلها عام 526 هـ أي بعد وفاة أبي العلاء الذي كان يغص بمكانه.

ويبدو أن مسألة استرجاع الأملاك ظلت قائمة بدون حل أو حُلَّت على وجه لم يرض البعض فانقسم الأشبيليون إلى فريقين :

فريق مع بني زهر، وفريق عليهم، فممن نعرف إنهم كانوا مع الفريق الأول : بنو اليُنّاقي وبنو الزّهري وبنو حزم المذحجيون والشاعر الأعمى التطيلي، ومن الفريق الثاني كان بنو أيمن وبنو خالص وبنو منظور والكاتب الإشبيلي الفتح بن خاقان الذي كتب رسالة إلى أمير المسلمين يشكو فيها ابن زهر، وهي رسالة خالية من التاريخ، ولكننا قد نربطها بالفترة التي كان فيها مخدومه أبو إسحاق ابراهيم والياً على إشبيلية عام 512 هـ وثمة رسالة صادرة عن أمير المسلمين في العام نفسه إلى أهل إشبيلية تتحدث عما بينهم من فرقة، وتنتقد الفقهاء والصلحاء الذين لم يسعوا في إصلاح ذات البين، وترغّب الناس في السكون والهدوء والسمع والطاعة لواليهم أبي إسحاق، ونحن نعرف صلة هذا الوالي ببني زهر، فقد ألف له عبد الملك كتاب الاقتصاد عام 515 هـ وهو العام الذي كان فيه واليا على إشبيلية، كما أن أبا العلاء كان يوالي رسائله إليه في التوصية ببعض أدباء شرق الأندلس لما كان هذا الأمير العالم واليا على مرسية.

وقد حاول الأمير أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين والي إشبيلية فيما بين 518 هـ و 522 هـ أن يخرج عما جرى عليه ولاة إشبيلية قبله من ترك الرئاسة لابن زهر وإشراكه في الأمر فما كان من أبي العلاء إلا أن وجه ولده أبا مروان ليشكو الأمير إلى والده أمير المسلمين وبعد المقابلة وجه أمير المسلمين إلى ولده الرسالة التالية :

«كتابنا ألهمك الله رشد نفسك، وأبرأ يومك من أمسك، من حاضرة مراكش حرسها الله، بعد وصول الوزير الجليل أبي مروان ابن الوزير الأجل، والفقيه الافضل : أبي العلاء بن زهر محل أبينا برد الله ضريحه، وقدس روحه، يشكو ما يكابده من تشغيبك، ويقاسيه من تضريبك، فأمسك عليك رمقك، وإلا ضرب لسانك عنقك، وخذ في الأمور بما يسر، وإلا نفيناك إلى ميورقة على ذات ألواح ودسر».

ويرجع موقف أمير المسلمين من ولده البكر هذا إلى أنه لم يكن راضيا عن تَصرفاته وكان يستعمله على الولايات كارها وراجيا صلاح حاله، وقد أمر بسجنه قبل وفاته كي لا يشوش على أخيه الأصغر تاشفين الذي اختير لولاية العهد.

إن حظوة أبي العلاء العظيمة هذه ومكانته الكبيرة لا ترجع إلى أنه ــ هو وولده ــ كانا يطببان الأسرة المالكة ويتحملان مشاق الانتقال من إشبيلية إلى مراكش وغيرها فحسب، وإنما ترجع تلك الحظوة وهاتيك المكانة إلى أدوار سياسية

قام بها أبو العلاء خدمة للمرابطين في الأندلس وجعلته يحل منهم محلا «لم يكن لأحد من أهل الأندلس في وقته» فاكتسب بذلك سلطة واسعة وثروة طائلة أضافها إلى ما ورثه عن أسلافه، وقد أصبح بابه مقصدا لشعراء العصر كالأعمى التطيلي وابن خفاجة وابن بقي وابن خلصة وابن صارة وابن عبدون وأبي الحكم عمر ابن حزم المذحجي وغيرهم.

وعندما نقرأ قصائد هؤلاء الشعراء التي يمكن أن يتألف منها ديوان شعري لا بأس به نستخلص جملة من المعاني نقتصر منها على ما يلي :

أولا : الاشادة بمفاخر الآباء والأجداد من قبيلة إياد، يقول الشاعر الوشاح المشهور ابن بقي :

من جده كعب بن مامة قد ... حاز الندى بالطي والنشر
هو أثر الثمري صاحبه ... بالماء في دَوِيَّةِ القفر
واساه حتى مات من ظماء ... ثم انطوى والجود في القبر
وأراك يازهر اقتديت به ... في صبره ونواله الغمر
زُهْر الكواكب كلها شهدت ... أن السيادة في بني زُهْر
ذر حاتما يشْجَى بكعبكم ... وافخر بدُغمِيٍّ على عمرو

وله من أخرى :

افخر على الناس ماء الأرض من شمم ... العز أقعس والآباء أنجاد
هل يستوي الناس قالوا كلنا بشر ... فالمندل الرطب والطرفاء أعواد

ثانيا : الاشادة بأعمال الرجل في خدمة الدولة وبأفضاله عليها يقول الأعمى التطيلي :

أتعلم ما أوليتها اليوم حِمير ... فتشكره، إن الكريم شكور

وقد شكرت الدولة خدمته، ورفعت منزلته، حتى لقد أصبحت الوزارة تعتبر دون مستواه، يقول ابن خفاجة :

تقِلّ الوزارة في حقه ... وتنزل عن قدره منصِبا

إذ أنه كان يعد الرجل الثاني في الدولة بعد أمير المسلمين وكان بمثابة الأخ أو الأب له، يقول التطيلي :

وحسب ولي العهد منك وعهده ... أخ وأب أو صاحب وأمير
تحليتما للملك تكتنفانه ... أبو حسن يسدي وأنت تنير

ويقول من قصيدة أخرى متحدثا عنه وعن أمير المسلمين :

وتوله في عقد كل سياسة هو أول فيها وأنت الثاني
وتسنما خطط الفخار وأنتما أخوان أو قلباكما أخوان

ولا يعتبر ما جاء في هذا الشعر من قبيل المبالغة، ففي رسالة ديوانية صادرة عن أمير المسلمين وردت تحليته «بالوزير الأجل والفقيه الأفضل محل أبينا برد الله ضريحه وقدس روحه» وقد تقدم ذكرها آنفا.

ثالثا : الاشارة إلى حساده، فابن رزين على سبيل المثال يفتتح قصيدة وجهها إليه بقوله :

عاد اللئيم فأنت من أعدائه ودع الحسود بغله وبدائه

والأعمى التطيلي يختتم إحدى قصائده فيه بقوله :

ودمت على غيظ الحسود بغبطة تجور على صرف الردى وتجير

وإذا كان كل ذي نعمة محسودا فإن أبا العلاء فضْلا عن ذلك لم يخل من بعض الخلال التي كثّرت حساده، وقد أطنب المؤرخ ابن اليسع في تعدد محاسنه بعبارات مسجوعة ثم قال : «لولا بذاءة لسان، وعجلة إنسان» ونضيف إليهما إعجابه الشديد بنفسه وعلمه، فعندما وقف على كتاب القانون لابن سينا لم يرض به وصار يستعمل صفحاته لكتابة الوصفات الطبية لمرضاه. وقد جَرّت عليه هذه الخلال حسد عدد من معاصريه، ومنهم الفيلسوف المشهور ابن باجة والكاتب المعروف ابن خاقان والشاعر الهجّاء الأبيض، فأما ابن باجة فهو القائل في آبي العلاء :

ياملك الموت وابن زهرا جاوزتما الحد والنهاية
ترفقا بالورى قليلا في واحد منكما الكفاية

وقد رد عليه أبو العلاء بقوله :

لابد للزنديق أن يصلبا شاء الذي يعضده أو أبى
قد مهد الجذع له نفسه وسدد الرمح إليه الشبا

ونقل المقري إن الذي كان يعضده هو زميله وصديقه مالك ابن وهيب مستشار علي بن يوسف، وهو إشبيلي، ويبدو أن صلته بابن زهر لم تكن طيبة، وقد يكون أبو العلاء أو عز إلى أحد الشعراء الذي قال فيه هذين البيتين :

دولة لابن تاشفين علي طهرت بالكمال من كل عيب
غير أن الشيطان دس إليها من خباياه ملك بن وهيب

وأما ابن خاقان فقد كان أكبر عدو لأبي العلاء، ولهذا لم يترجم به في القلائد وإن ساق شعر بعض شعرائها في مدحه، وذلك في الوقت الذي نجد ابن بسام يذكر أبا العلاء بكثير من التمجيد في الذخيرة ويقول أنه يستحق أن يحل منها « محل زحل من الفلك، والتاج من مفرق الملك».

وقد أورد المقري رسالة كتبها الفتح في شأن أبي العلاء إلى أمير المسلمين، ومما جاء فيها قوله متحدثا عن ابن زهر :

«ولما علم أنك لا تنكِر عليه نكرا، ولا تغَيِّر له متى ما مكر في عباد الله مكرا، جرى في ميدان الأذية ملء عنانه، وسرى إلى ما شاء بعدوانه، ولم يراقب الذي خلقه، وأمد في الحظوة عندك طلقة».

وأما الشاعر الهجاء الأبيض فقد هجا أبا العلاء فيمن هجا من رجالات الدولة يومئذ.

وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المذكورين ماتوا على أسوإ حال بين مسموم ومخنوق ومصلوب، ونقل المقرى أن ابن باجة سُمّ بإيعاز من أبي العلاء.

وإذا كانت خصومته مع ابن باجة تفسر بالمنافسة بسبب اشتراكهما في المهنة فإن عداوة ابن خاقان والأبيض الإشبيليين لا تفسر إلا بما درج عليه هذان الأديبان من ثلب الأعيان، ولعل أبا العلاء الذي رعى عددا من الشعراء لم يفلح في اتقاء شرهما واجتناب عداوتهما، ولقد أدت هذه الخصومات وغيرها في الأخير إلى الامتحان الذي انتهت به حياة أبي العلاء في آخر سنة من عمره. وقد ذكر ولده أن هذا الامتحان كان بسبب «قولَةٍ عقدها الأمير على الشيخ أبيه» ولابد أن هذه القولة التي لم يفصح عنها كانت من البذاءة أو الخطورة بالدرجة التي جعلت أمير المسلمين يأمر بنكبة من كان يعده في مقام والده.

وقد سجل المؤرخ ابن عذارى خبر هذه النكبة في وقائع عام 524 هـ بتفصيل مجمله أن أبا العلاء كان يعتمد في تنفيذ أوامره ونواهيه بإشبيلية على صهره الزهري الذي كان يلي خطة ما، وحدث أن ساءت العلاقة بين الرجلين، فبادر أبو العلاء ــ الذي كان موصوفا بالعجلة حسبما مر ذكره ــ إلى مخاطبة علي بن يوسف في عزله، فما كان من الزهري إلا أن ذهب إلى مراكش، وهناك تكلم في ابن زهر بملء فيه وصدرت العقوبة في حقهما معا فأُمِر الزهري بسكنى مراكش، واستدعي

أبو العلاء إلى المغرب وأمر بالاقامة في فاس، ومنها نقل إلى قرطبة لمّا مرض حيث توفي عام 525 هـ بنغلة ظهرت في الكتف الأيسر بسبب ماناله من غم وهم في نكبته، وحمل جثمانه إلى إشبيلية، وكان قد أمر أن يكتب على قبره قوله :

ترحم بفضلك ياواقفا وأبصر مكانا دفعنا إليه
تراب الضريح على صفحتي كأني لم أمش يوما عليه
أداوي الانام حذار المنون فها أنا قد صرت رهنا لديه

يتضح مما عرضناه باختصار دور أبي العلاء زهر كرجل دولة ممارساته الطويلة ومعالجته العديدة للخاصة والعامة في أرجاء الأندلس والمغرب كما أن ما عرف به من تنمية لثروته وتعهد لضيعاته لم يشغله عن أن يؤلف في فنه ويخلف فيه نحو عشر مؤلفات في موضوعات طبية مختلفة، يوجد بعضها في الخزانة العامة والخزانة الحسنية بالرباط. ويوجد بعضها الآخر في الخارج وما تزال ــ حسب علمنا ــ غير مطبوعة وكان المستعمر الفرنسي جابرييل كولان نشر عام 1911 م كتابا اسمه التذكرة منسوبا إلى أبي العلاء حسبما هو موجود في مخطوطتي باريس والاسكوريال، غير أن النسختين الموجودتين في الخزانة الحسنية من هذا الكتاب مبدوءتان بما يلي : «كتاب التذكرة في الدواء المسهل وغيره لأبي مروان عبد الملك ابن زهر رحمه الله كتب بها لابنه أبي بكر في صغر سنه وأول سفرة ناب عنه فيها».

وقد أعاد زميلنا الكريم الاستاذ محمد العربي الخطابي نشر هذا النص في الجزء الأول من كتابه « الطب والأطباء» منبها على الخلاف بين النسخ ومرجحا نسبة الكتاب إلى أبي مروان كما هو مثبت في نسختي الخزانة الحسنية، وقد تخرج بأبي العلاء أطباء كبار منهم ولده أبو مروان عبد الملك وحفيده أبو بكر وأبو عامر محمد بن ينق الشاطبي الذي عرف أبا العلاء في شاطبة والتحق به لما انتقل إلى إشبيلية وأبو الحسن علي ابن جودى الغرناطي.

فأما عبد الملك فإنه أشهر اطباء أسرة بني زهر بلا نزاع، وأعظم أطباء زمنه على الاطلاق، وقد قارنه بعض المختصين بابن سينا والرازي وقال آخرون إنه يفوق ابن سينا ولا يماثله إلا الرازي، ونظرا لشهرته فإن ابن زهر أصبح في اللغات الاجنبية علما عليه وحده والاسم إذا أطلق في العربية لا ينصرف إلا إليه.

ولقد كتب الكثير حول هذا الطبيب الشهير ومع ذلك فإن نقاطا عديدة في حياته ما تزال غير واضحة، وبعضها لا يستفاد إلا مما يرد عرضا واستطرادا

في كتبه الطبية ولا سيما كتاب التيسير ولكن الوقائع التي يشير إليها خالية من التواريخ.

ولعل أسلم طريقة لعرض سيرته هي أن ننطلق من بعض التواريخ المنصوص عليها في ترجمته وغيرها، وكما رأينا بالنسبة لأبيه زهر وجده عبد الملك فإن عبد الملك الحفيد لايعرف له تاريخ ميلاد، وكل ما نعرفه أن ولده أبا بكر ولد 507 هـ وهو يذكر في التيسير أنه لم يكن يولد له في بداية زواجه إلى أن مرض من حمى محرقة فعالج نفسه بعلاج سماه قال «فلما برئت ولد لي ولدي هذا الكبير وتتابع إيلادي وتناسق» والتاريخ الثاني الذي نجده في ترجمته هو عام 512 هـ وهو الذي تناول فيه الموطأ وصحيح البخاري وصحيح مسلم والدلائل في غريب الحديث لقاسم السرقسطي من عبد الرحمن ابن عتاب أكبر شيوخ العصر، وقد وجدناه يقول في التيسير ما نصه : «وأذكر وأنا فتى حديث السن أعالج أعمال الطب بين يدي أبي رحمه الله، وعن رأيه استدعيت يوما إلى تميم أخي علي وكان يلي إشبيلية»، وتميم هذا كان واليا على إشبيلية عام 516 هـ والتاريخ الثالث الذي نجده في ترجمته هو عام 515 هـ الذي فرغ فيه من تأليف كتاب الاقتصاد.

يستخلص من التواريخ السابقة أنه تزوج في سن مبكرة جدا وأنه بدأ يمارس مهنة الطب وينوب عن والده الذي شغلته السياسة في معالجة أمير المسلمين وآله وهو بعد فتى حدث وقد أشار إلى هذا مرارا في التيسير.

ومنذ 520 هـ أو قبلها بقليل أخذ ينظر في أمور إشبيلية نيابة عن والده عندما كان هذا يسافر إلى مقابلة أمير المسلمين ، وقد رأينا مما سبق أن أبا العلاء كلف ولده بالقيام بمهمة لدى الأمير المذكور حوالي التاريخ أعلاه، ونستفيد من خبر في المعجب للمراكشي أن داره في إشبيلية كانت كدار أبيه مقصودة من أهل الأدب وغيرهم ولما استدعى والده عام 524 هـ خلفه على رأس الجماعة في إشبيلية إلى أن قدم واليها الجديد أبو حفص عمر أمقور فخرج لاستقباله، ولكن الوالي «لما رآه أصغره وقصر به» ونكل بحاشيته التي هي من حاشية أبيه تنكيلا شديدا. ومن هنا بدأت محن أبي مروان التي حدثنا عنها بتفصيل في التيسير فلقد تغيرت سياسة المرابطين تجاه بني زهر تغيرا تاما بسبب ما تراكم من أمور حولهم طوال نصف قرن تقريبا وفي البيان لابن عذاري فقرة تجمل هذه السياسة وهي : «وذهب أدب ابن تيهية، وأقبل أدب الحجاج» ومعناها انتهى عهد اللين والتسيب وأقبل عهد العنف

والتشدد، ونتيجة لذلك سيق أبو مروان إلى سجن مراكش حيث بقي فيه إلى سنة 535 هـ أي أنه قضى في السجن عشر سنوات أو أزيد، وقد تحدث بتفصيل عن هذا السجن الذي سماه ووصفه وحكى ماكان يقع فيه من أحداث خلال تلك السنوات التي شهدت بداية النهاية لدولة المرابطين، وقد كان أبو مروان وهو في السجن يعالج المرضى، ويستدعي لعلاج الملثمين في خارج السجن، ويتردد عليه تلاميذه فيه، ومنهم ابن غلنده أشهر تلاميذه الذين سمى ابن أبي أصيبعة عددا منهم، ولا شك أنه ألف عددا من مؤلفاته خلال هذه الفترة كذلك.

أما سجن عبد الملك فهو مما جرته نكبة بن زهر التي لها أشباه ونظائر في عهد علي الذي عرف ولاسيما في آخره بكثرة التغيير في الولاة، وقد وجدنا الشاعر ابن خفاجة يشكو في رسالة وجهها إلى أبي العلاء زهر من «تثاقل الأعمال، بتداول العمال، فما تتمهد من حالة حتى تتهدم، ولاتوجد بها من راحة حتى تعدم» وإذا كان أبو العلاء نكب ــ كما ذكرنا ــ بسبب «قولة» فإن مؤلف الذيل والتكملة يقول بخصوص نكبة عبد الملك : «وأدركته مطالبة عند أبي الحسن علي ابن يوسف بن تاشفين كانت بسبب اعتقاله بسجن مراكش مدة» وهكذا تبقى ماهية تلك القولة أو هذه المطالبة غير معروفة بالتعيين، ومع ذلك فإن لنكبة الطبيبين الكبيرين مقدمات وأسبابا متعددة أشرنا فيما سبق إلى بعض ما يتعلق منها بوالده، ومنها فيما يخص عبد الملك أنه لم يكن يسكت عن بعض ما يخالف التطبيب في قصور المرابطين، فقد استغرب مرة عدم جدوى علاجه لتميم بن يوسف بن تاشفين و«لما اكتشفت أنه كان يسقى ماء فيه مافيه صاح عبيده، فلم أجد من نفسي معينا على السكوت، وتابعت القول فظهر لي الغضب من زوجته حواء ومن خوادمها وأعقب ذلك سعيا علي، فلم يصرفني شيء من ذلك عن قول الحق، وعزم علي بعض أصحابي في السكوت والعودة إلى حظوتي فرأيت أن ذلك ضرب من التلبيس فلم أجب إليه».

وفي التيسير حكايات من هذا القبيل تجعلنا نرجح أن عبد الملك كان ضحية الصراعات الظاهرة والخفية التي كانت بين زعماء المرابطين ولا سيما في عهد علي بن يوسف بن تاشفين.

ومما يلاحظ أن اسمه لم يذكر ضمن أسماء الوفد الذي حضر من إشبيلية لمبايعة عبد المومن عام 541 هـ، ولكننا نعرف أنه ألف باسمه بعض التآليف الطبية، وأول ما ألف له كتاب «الأغذية والأدوية» وقد جاء في ديباجته بعد الحمدلة والترضي عن ابن تومرت ما يلي متحدثا عن نفسه وعن سعادته بإدراك دعوة المهدي :

«وقد جعله (الله) ممن اهتدى وصدق، وآمن على بعد وتحقق، وبادر بقلبه والحمد لله وسبق» ويلي هذا دعاء لعبد المومن يليه قوله :

«ولما أمرت أعزك الله بأن أكتبْ في الأغذية والأدوية التي يسهل وجدانها، ولا يتعذر في أكثر المواطن إمكانها، كلاما مختصرا من غير تعليل ولا تطويل. بدأت ممتثلا وكتبت مطيعا وإن كنت عاريا من كتبي لما علم من طول محنتي، وأرجو أن يكون كلامي أول قول وقع في علم الطب إلى الدولة الظاهرة العلية وجمع للطائفة الكريمة المهدية : فأرجو بذلك شرفا يخلد، وذكرا في طاعته يحمد».

ويبدو أن عبد الملك لم يرجع إلى مراكش بعد خروجه من سجنها وأنه لازم إشبيلية حيث كانت ترد عليه أوامر الخليفة عبد المومن بالتأليف في موضوعات يقترحها عليه، وسبب هذا أنه لم يعد يتحمل مشاق السفر، فقد حكى في التيسير أن يحيى بن يومور كلفه السفر من إشبيلية وقرطبة في سنة 549 هـ إلى إحدى الجهات لمعالجة مريض علته الفالج، وكان الوقت وقت ثلج، واليوم يوم مطر فأصابه خَدَر في رجله اليسرى فلم يصل إلى المكان إلا محمولا ولم يرتفع عنه الخدر إلا بالتدفئة والتدليك وبالدواء الذي حمله لمعالجة المريض.

ونظرا لهذا كله فقد اكتفى عبد المومن من عبد الملك بما كان يؤلفه باقتراحه ويوجهه إليه من إشبيلية مثل كتاب الأغذية والقانون وغيرهما.

كما أنه في الوقت نفسه كان يؤلف رسائل توجيهية لولده أبي بكر الذي سنكون له مكانة لدى خلفاء عبد المومن تشبه المكانة التي كانت لجده أبي العلاء زهر عِنْدِ المرابطين قبل النكبة، وقد بدأت حظوة أبي بكر الحفيد مع يوسف بن عبد المومن وسماه قاضيا للجماعة والمحلة عام 562 هـ وكان في ركابه لما قضى على الثائر الغماري سبع بن منغفاد، ومن هذا التاريخ إلى وفاته في مراكش عام 595 هـ وهو يفد على هذه المدينة لمقابلة الخليفتين أو يستقبلهما في إشبيلية التي استرجع فيها بنو زهر مركز الصدارة من جديد، وذلك بفضل مؤهلات الحفيد الرفيعة التي يقول فيها المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي :

«وكان أحد رؤساء الأندلس وممن انتهى إليه السؤدد منهم ذا مناقب جليلة، وخصال جميلة، صارما أبيا عزيز الجانب منيع الحمى، أديبا بارعا حافظا للحديث والفقه والأدب واللغة، وإماما فيها، ماهرا في الطب حاذقا بالعلاج موفقا فيها، لم يكن في أطباء زمانه من يتقدمه، سلطاني الطباع سمحا جوادا عظيم الجدة والايثار، متواضعا على شرفه مربيا بفضل خلقه على فضائل سلفه». إلى أن يقول :

«وكان معظما عند ملوك عصره من آل عبد المومن، مقبول الشفاعة عندهم، حظي المكانة لديهم، مكرم الوفادات عليهم» وقد اعتمد عليه يوسف بن عبد المومن سنة 567 هـ في الأعمال العمرانية بإشبيلية ومنها بناء الجامع الكبير وغيره، وهو الذي كان على وفد إشبيلية الذي قدم إلى مراكش عام 578 هـ وزار خلا ل هذه الوفادة قبر المهدي وخليفته عبد المومن بتينمل، وكان مصحوبا بابن رشد الحفيد وعبد الملك ابن صاحب الصلاة المؤرخ، وكان مع الخليفة أيضا في حركته إلى غرب الأندلس تلك الحركة التي توفي الخليفة في آخرها عام 580 هـ وكان على رأس الأطباء الذين حضروا وفاته، كما أنه هو الذي استقبل المنصور في زيارته إلى إشبيلية عام 591 هـ ورتب مع من كان يستعين به من أشياخ البلد نزول حاشية الخليفة، وكانت آخر وفادة له إلى مراكش عام 595 بعيد وفاة المنصور من أجل التعزية ومبايعة ولده الناصر وقد أدركته منيته بمراكش في السنة المذكورة، ويذكر عبد الواحد المراكشي أنه زار أبا بكر الحفيد خلال هذه السنة بمحل إقامته في مراكش وسمع منه حكاية وأشعارا أثبتها في المعجب وسنشير إليها بعد قليل، وقد اختُلِف في سبب وفاته، فابن عبد الملك يذكر أنه «قدم مراكش في ذي القعدة عام 595 هـ وبه شكاة عرضت له في الطريق إليها فتوفي هو وبنت أخته غدوة يوم الخميس لتسع بقين من ذي الحجة من السنة وصلى عليه الناصر أبو عبد الله».

أما ابن أصيبعة فقد روى عن أبي مروان الباجي أن أبا بكر مات مسموما بإيعاز من ابن يوجان الذي كان يحسده وأن بنت أخته أكلت مما أكل منه، ومهما يكن من أمر فإن هذا الطبيب المهيب كان لما توفي قد تجاوز التسعين، ومن الصدف والاتفاقات أن أبا بكر الحفيد هذا وابن رشد الحفيد ماتا في سنة واحدة هما وراعيهما المنصور الذي كان يجمع بينهما في مجلسه ليستمع إلى جدلهما وفخر كل واحد منهما ببلده على صاحبه. والمفاخرة التي جرت بينهما في مجلس المنصور في المفاضلة بين إشبيلية وقرطبة معروفة، وإذا كان المنصور قد استمع إلى وشاية بابن رشد وامتحنه بسببها فإنه ـــ فيما يروى ابن أبي أصيبعة ـــ قد سجن أحد أعيان إشبيلية لما رفع إليه محضرا في اتهام الحفيد بالفلسفة وقال : والله إن جميع أهل الأندلس وقفوا قدامي وشهدوا على ابن زهر بما في هذا المحضر لم أقبل قولهم لما أعرفه من متانة دينه وعقله. إن أبا بكر الحفيد مع المهمات المختلفة التي كانت توكل إليه والممارسات الطبية الرسمية والشعبية التي كان يدعى إليها لم ينس جانب التعليم والتأليف في الطب،

فمن مؤلفاته كتاب الترياق الخمسيني ألفه للمنصور ومختصر كتاب حيلة البرء لجالينوس الذي توجد منه نسخة بالخزانة الحسنية وهو تجريد مجدول عجيب.

وأما الأطباء الذين تخرجوا به فأولهم ولده أبو محمد عبد الله وآخرون مذكورون في طبقات الأطباء.

فأما أبو محمد فهو الخامس في سلسلة الأطباء من بني زهر، وقد ولد في سنة 577 هـ بإشبيلية، وتوجه إلى دراسة الطب والاعتناء بصناعته منذ صغره حسب تقاليد أسرته، يقول ابن أبي أصيبعة :

«واشتغل على والده ووقفه على كثير من أسرار علم هذه الصناعة وعملها، وقرأ عليه كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري وأتقن معرفته» وقد جمع بين جمال الصورة وفرط الذكاء ونبل الخلق وسمو البِزّة وعلو الهمة، وقد لقي من الاحترام والتبجيل لدى الخليفة الناصر مثل مالقي والده لدى المنصور، ومات في الخامسة والعشرين من عمره مسموما كأبيه، وذلك في سنة 602 هـ وكانت وفاته برباط الفتح وهو في طريقه إلى مراكش، وحُمِل إلى إشبيلية حيث دفن بمقبرة أسلافه، وقد خلّف ولدين أكبرهما أبو مروان عبد الملك، وأصغرهما أبو العلاء محمد، وهو السابع والأخير في هذه السلسلة الذهبية من الأطباء الرجال في أسرة بني زهر، وأما النساء فالمذكور منهن ثلاث أشهرهن أم عمرو التي ترجم لها كل من ابن الآبار وابن عبد الملك.

وأشير في الأخير إلى أن عبد الله زين الشباب الذي لم يمتع بالشباب كانت له بنت تزوجها أحمد الباجي الذي أعلن نفسه ملكا على إشبيلية عام 630 هـ وأنجب منها ولدا يعرف بأبي عبد الله محمد الباجي سبط أبي محمد عبد الله ابن زهر وكان فيمن هاجر إلى المشرق بعد سقوط إشبيلية واستقر بدمشق، وقد روى عنه ابن أبي أصيبعة بعض موشحات جده للأم أبي بكر الحفيد، وهذا السبط هو آخر من نعرف من الفرع الأول من أسرة بني زهر وهو فرع عبد الملك بن زهر Aven soar، وثمة فرع ثان هو فرع أخيه قسورة وأشهر أعلام هذا الفرع أبو بكر محمد بن قسورة الذي كان فقيها وجيها، ولهذا قدمه أهل إشبيلية إماما للجامع الأعظم، وكان أيضا أديبا أريحيا يروي الشعر ويقوله، وقد أورد له ابن سعيد العنسي أبياتا من قصيدة في مدح المامون الموحدي لما بويع بإشبيلية، ومنها بيت يصرح فيه بأن فرع قسورة لم يرثوا شيئا من علم جدهم زهر بالطب، وهو قوله :

إن كنت من أدوات زُهر عاطِلاً فالزُّهر منهن السِّماك الأعزل

وكان بنو قسورة بن زهر مثل بني عبد الملك على جانب كبير من الثراء والمكانة الاجتماعية في إشبيلية، فقد كانت جنات بني قسورة على نهر إشبيلية يقصدها الناس للتنزه كما كان بيتهم لِلأدباء.

ويبدو أن بني زهر بفرعيهم طُوِيَ ذكرهم وانتهى أمرهم بنهاية إشبيلية الاسلامية وسقوطها عام 646 هـ إذ لا نجد ذكراً لأحد من بني زهر بعد هؤلاء، والظاهر أن عائلتهم انقرضت فقد كانت أمهاتهم كأمهات الصقور، وأم الصقر ــ كما يقول الشاعر ــ مقلاة نزور، وعلى كل حال فقد أدت هذه الأسرة رسالتها ونهضت بمسؤوليتها طوال ما يقرب من ثلاثة قرون، ولا نعرف أسرة غيرهم تسلسل فيها الطب في مثل هذه المدة إلا ما رواه ابن الآبار في ترجمة عبيد الله المذحجي الطبيب المتوفي عام 612 هـ فقد ذكر هذا لابن الآبار أنه «يروي الطب عن أبيه عن أبيه كذلك إلى الوليد جدهم الأكبر، وأنهم كانوا أطباء، وأن الوليد منهم دخل الأندلس مع عبد الرحمن الداخل وهو كان مدبر علاجه».

والآن وقد عرضت عليكم بإيجاز وتركيز لمحات من تاريخ أسرة بني زهر وومضات من تراجم أعلامها فسأعرض بإيجاز كذلك إلى بعض الخلائق التي كانوا يتصفون بها والفضائل التي تحلوا بها خلفا عن سلف إذ أن هذه الأسرة ما كان لها أن تشتهر وتستمر لولا حرصها على الأخذ بمجموعة من القيم حفظت لها بقاءها ووجودها بالرغم من التحديات التي واجهتها في عهد الطوائف والمرابطين، ولعل هذه التحديات هي علة استمرارها وحافز ازدهارها. فما هي إذن هذه الفضائل أو القيم التي نستخلصها من تاريخ بني زهر وسِيَرهم ؟ إن أولها هو شغفهم الشديد بطلب العلم وعناؤهم الكبير في سبيل تحصيله، وقد أعطانا عبد الملك في التيسير صورا من تشدّد والده معه أثناء التعلم وبعده، سأله مرة عن مسألة، قال : «فمدّيدَهُ إلى كتاب وأخرج منه قول جالينوس ودفعه إلي وقال لي : انصرف من غير أن يزيدني شيئا، وكلما رمته أن يفرج عني أبى القول وقال : ردد هذه الصفحة على ذهنك فإن أجدت علاجه فبها ونعمت، وإن يكن ما سوى ذلك فقد سخنت عيني بك، واحذر بعد ذلك أن تتعرض لشيء من أعمال الطب، فليس يحل لك ولا يحل لي أن أقرك بعد ذلك على أن تتعرض لشيء من أعمال الطب».

وذكر ابن عبد الملك في ترجمة أبي بكر الحفيد أنه «كان أول طلبه ألزمه أبوه موضعا من داره وبناه عليه و لم يترك منه إلا موضع يدخل منه الطّعام والشراب إليه، وأقسم ألا يخرجه منه حتى يستظهر كتاب البرء لجالينوس فلم يمر عليه إلا

أمد قليل حتى فرغ من حفظه وشفعه بتشريح جالينوس الكبير». وفعل الحفيد هذا الشيء نفسه مع ولده عبد الله في كتاب النبات للدِّينَوَري.

والقيمة الثانية لدي أعلام هذه الأسرة هي اتصافهم بصحة العقيدة ومتانة الدين، وهذا شيء منصوص عليه في تراجمهم جميعا ووقف عنده ابن أبي أصيبعة فقال في ترجمة أبي بكر الحفيد : « وكان ملازما للأمور الشرعية متين الدين». وساق حكاية طالبين كانا يدرسان عليه فرأى ذات يوم بيد أحدهما كتابا في الفلسفة، فما كان منه إلا أن طردهما وأمرهما بعد ذلك بقراءة الحديث والتفسير، ولما اطمأن إلى رسوخهما في هذين العلمين سمح لهما حينئذ بمطالعة كتب الفلسفة.

كما أن مؤلفات أبي العلاء زهر الطبية ومؤلفات ولده كذلك تنطقان بالتوحيد الخالص والايمان الصادق، وهما يستشهدان بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وكانا متضلعين فيهما، وكما غضب أبو بكر الحفيد على الطالبين المذكورين غضب جده أبو العلاء على تلميذه ابن جودي لما رأى منه انحرافا في العقيدة والسلوك، وقد حاول هذا الطالب استرضاء أستاذه بكل وجه فلم يفلح.

ومن القيم والدروس التي نستخلصها من سير هؤلاء الأطباء الكبار أنهم كانوا يطببون الناس ــ ولا سيما الفقراء ــ بالمجان، ذكر ابن عبد الملك المراكشي في ترجمة أبي بكر الحفيد أنه كان «يطب الناس حسبة ويعطيهم من قبله الأدوية العزيزة الوجود تبرعا طيب النفس بها» ولم تكن هذه الخصلة خاصة بالمذكور، وإنما كانت خصلة عامة في بني زهر، وقد أشار عبد الملك في التيسير إلى عدد من الحالات يبدو أنه عالجها حسبة وتطوعا، كما أشار ابن أبي أصيبعة إلى حالات أخرى، وياحبذا لو أصبح بنو زهر في هذا قدوة لبعض الأطباء الكبار في هذا الزمان من الذين نسمع عن أثمانهم الخيالية.

ومن قيم بني زهر التي ورثوها خلفا عن سلف الجود والكرم، والأنعام على العلماء، والاسهام في الأعمال الخيرية، ونشير هنا إلى حكاية أبي بكر الحفيد مع ابن البُنّاقي إذ أنجده بمبلغ كبير وأبى أن يقبضه منه، ونشير كذلك إلى مساهمته الكبيرة في المبلغ المالي الذي جمعه أهل إشبيلية لتحرير أسرى شنتمرية عام 578 هـ أما جود أبي العلاء زهر فإنه جعل شعراء عصره يسقطون عليه كما تسقط الطيور، على الحب المنثور، وأما إكرامهم للعلماء والأدباء فقد ذكر المؤرخون أن عددا من علماء إشبيلية وغيرها عاشوا في كنفهم ومنهم أبو علي الشلوبين أشهر نحاة الأندلس.

ومن الغريب أن الصدفي لما ذكر في ترجمة أبي بكر الحفيد أنه كان «سمحا جوادا ممدحا» عقب على ذلك بقوله : «وهاتان أعجوبتان : مغربي طبيب كريم» ولم أتبين شخصيًّا موضع العجب، ويبدو أنه لم يقرأ أخبار أسرة بني زهر ولو أنه فعل لما تعجب.

وأما احترام بني زهر للعلماء فتدل عليه حكاية عبد الملك ابن زهر مع الأديب الحافظ ابن عبدون والتي أوردها المراكشي في المعجب.

على أن الميزة الكبرى لهؤلاء الأطباء الكبار من بني زهر هي مشاركتهم الواسعة في مختلف العلوم والآداب فقد روى أبو العلاء ابن زهر العلوم الاسلامية من فقه وحديث على أبي علي الغساني وغيره، ورأينا مما مضى أن ولده عبد الملك، روى صحيح البخاري وصحيح مسلم والموطأ على ابن عتاب، وكان أبو بكر الحفيد يحفظ صحيح البخاري عن ظهر قلب، وقد كانوا يضربون بسهم وافر في الآداب فقد كان أبو العلاء زهر وولده عبد الملك يرويان مقامات الحريري عن مؤلفها الذي كتب إليهما بالاجازة من العراق، وكان أبو بكر الحفيد يحفظ ديوان ذي الرمة، وهو ثلث لغة العرب، وكانوا شعراء رويت لهم أشعار في كتب الأدب، وأشعرهم ولا شك هو أبو بكر الحفيد الذي أجاد في القريض وتفوق في التوشيح وموشحاته كثيرة وموجودة، ومن أشهرها الموشح المشهور :

أيها الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

وقد يستغرب الناس اليوم كيف استقامت لهؤلاء الأطباء هذه المشاركة الواسعة في كافة العلوم والآداب، وقد يقال إن العلوم كانت يومئذ محدودة صغيرة ولكني أقول إن همم أولئك الناس كانت عظيمة وكبيرة، ولهذا كان معظم الأطباء قديما من المشاركين في الآداب كابن سينا مثلا، أما في الأندلس فنكاد نجد لعموم الأطباء شعرا مرويا.

ومما تجدر الإشارة إليه في الأخير أن كون بني زهر كانوا يحفظون كتاب النبات للدينوري وديوان ذي الرمة وغيره، ومقامات الحريري وأمثالها هو الذي أكسبهم ثروة لغوية لاحصر لها وجعل لغتهم في الطب عربية أعرابية خالية من كل عجمة أو عجز، فلعل أطباءنا اليوم يقتدون بأسلافهم ويأخذون العبر من آثارهم.

وبعد، فقد ورد في عنوان هذا الحديث عبارة «أسرة أندلسية» في حق بني زهر، وهي عبارة جرينا فيها على الاصطلاح المعروف في نسبة الاعلام وإلا فإن هذه الأسرة هي مغربية أيضا فقد عاش معظم أعلامها في ظل المرابطين والموحدين وألفوا ما ألفوا من مؤلفات برسم ملوك هاتين الدولتين. وإذا كان ابن سعيد العنسي والشقندي الاشبيلي قد فاخر بأندلسية بني زهر فإن «مفاخرتهما» هي من قبيل المفاخرات البلدانية. فهي كالمفاخرة بين قرطبة وإشبيلية أو فاس ومراكش مثلا، والدليل على هذا أن مفاخرة الشقندي وابن المعلم جرت في مجلس أمير موحدي وتمت باستدعائه ومن هنا فإن بني زهر يسلّكون في عداد مفاخر المغرب ومآثره.